المدارس الناهضة

"المدارس الجديدة" و"المدارس الناهضة" أو "المدارس المترقية" من الألفاظ التي يكثر ورودها هذه الأيام في دوائر التعليم الأوربي والأمريكي. وقد ألف عدد كبير من الكتب في شرح مبادئها وتركيبها كما أصبحت لها مجلات تدعو الى هذه المبادئ وتوضحها وتنشر اخبارها.

واذا شئنا أن نبين المبادئ التي يقوم عليها التعليم في هذه المدارس لاحتجنا الى مجلدات. ولذلك نكتفي بذكر الأهم من المبادئ العامة ولا ندخل في التفاصيل.

وأهم هذه المبادئ هو الإيمان بطيبة الطبيعة البشرية. فإن هناك فلسفتين في التعليم. احداهما تلك التي تقول بسوء الطبيعة البشرية وضرورة العصا للتأديب وبالرقابة والتوجيه والالزام للتلميذ. والأخرى تقول بطيبة الطبيعة البشرية. وبأن التلميذ يجب أن يكون حرا يدرس ما يشاء ويترك ما يشاء فلا يجبر على دراسة مادة يكرهها ولا يضرب ولا يعاقب بالعنف.

هذا هو المبدأ الأول الذي يشمل جميع المدارس "الجديدة". وأول من دعا هذه الدعوة هو بالطبع جان جاك روسو في كتابه "أميل". وفي عصرنا الحاضر نجد ديوى وكيلباترك في أمريكا وناييل ورومل في بريطانيا، وعدد اكبيرا غير هؤلاء في أوربا باستثناء الديكتاتوريات التي أغلقت جميع هذه المدارس لأنها تناقض فكرياتها السياسية.

فإذا تركنا هذا المبدأ العام ونظرنا نظرة عاجلة فيما ينطوي عليه المعنى والمغزى من هذه المدارس وجدنا أننا نستطيع بالمقابلة بينها وبين المدارس القائمة التي لا تزال تسير على المناهج والبرامج القديمة أن نبرز كثيرا من فضائلها التي قد تعد رذائل عند أولئك الذين لا يؤمنون بها.

فالتلميذ في هذه المدارس الجديدة لا يتعلم ولكنه يعيش. أو هو سيتعلم عن طريق المعيشة. فإن المدرسة تنظر اليه باعتباره كائنا حيا يجب أن يتمتع بطفولته أو صباه أو شبابه وهي تزوده بوسائل العيش في المدرسة باعتبار هذه المدرسة مجتمعه الخاص الذي يجب أن يحيا فيه حياة مليئة بالعمل والنشاط. وهو هناك يحيا ليومه وليس لغده. فان المدارس القديمة تؤكد تأهيل التلميذ للمستقبل. وهي تنصرف الى هذه الناحية انصرافا يكاد يكون كليا فتهمل الحاضر وتحرم الصبي أو الشاب من أن يعيش في سنه وتلتفت فقط الى رجولته المستقبلة فتهيئه لها. ولكن المدارس الجديدة تقول إن خير ما يهيئ للمستقبل هو الحاضر، فيجب أن يعيش الصبي وفق السن التي هو فيها. وهذا المبدأ يضطرها الى أن تجعل الفصول الأولى التي للاطفال عملية يتعلم فيها الطفل أو الصبي المعارف عن طريق العمل.

فالصبي نجـار أو حداد أو نساج أو هو يجلد الكتب أو يطلى الأدوات والجدران أو يزرع أو يصنع أى شيء آخر . ومدرسة الأطفال تعد من هذه الناحية مجموعة من الورشات الصغيرة لا يجبر طفل أو صبي على أن يحضر ويتعلم فى واحدة منها ، بل هو يترك لكى يلعب ويشبع بل يسأم من اللعب ثم يختار إحدى هذه الورشات ويعمل فيها . والمعلم الذى يرشده يقرن المعارف إلى العمل ولكنه لا يقسر التلميذ على أن يتعلم أكثر مما يحتاج إليه برغبته الصادقة فى الوقوف على الصعوبات التى تعترضه فى عمله . ولعل مما يستغربه القارئ أن يعرف أن التلميذ فى هذه المدارس الجديدة يعاقب بحرمانه من الدرس . فإنه لتعلقه بالورشة أو ما يلحق الورشة من دروس لا يطيق الغياب عنها . وهو يترك لعبه وسلوياته لكى يدرس ويتمرن .

وقـد ألغت المدارس الجديدة الدرجات فى المواد كما ألغت ترتيب التلاميـذ وذلك للاعتقـاد بأن الدرجات والترتيب كلاهما يحدث مباراة تبعث على الكراهة بين التلاميذ . والمعلم يمتحن التلاميـذ لا لكى يبين لهم المتفوق والمتخلف بل لكى يعرف هل الطريقة التى تتبع فى تعليمهم مجدية أم لا . فكأنه بامتحانهم إنما يمتحن نفسه لكى يثبت على طريقته أو ينقحها أو يستبدل بها . وبدلا من المباراة بين تلاميذ الفصل الواحد تتبارى الفصول جماعة فيحس التلميذ فى الفصل روح التعـاون بينه وبين إخوانه ويؤدى عمله كما لو كان عضوا فى فريق الكرة يجهد ويتعب لكى تنجح الجماعة وليس لكى ينجح هو وحده . وينشأ بعد ذلك فى المجتمع وهو ينظر هذا النظر أى لا يندفع بالرغبة فى التفوق والإثراء إلى المزاحمة العنيفة بل يتجه فكره على الدوام إلى التعـاون مع المجتمع . فالمدرسة هى المجتمع الصغير الذى يعيش فيه الطفل أو الصبي أو الشاب ، فاذا كان العمل فيها يسير على مبدأ المباراة فان المجتمع الكبير الذى سيعيش فيه الشاب عاملا كاسبا سيسير أيضا على هذا المبدأ . والتعاون أصلح للمجتمع من المباراة .

ومبدأ آخر تسير عليه المدارس الجديدة ، هو أن التلميذ يشترك مع المعلم فى التعليم . فليس التعليم هنا مهمة المعلم وحده . وانما هو مهمة التلميذ أيضا . وبكلمة أخرى يجب أن ننقل الطريقة الجامعية التى يتبعها الطلبة الكبار فى الكليات الى المدارس الابتدائيـة والثانوية . فالتلميذ يبحث ويقرأ بإرشاد المعلم ولكنه لا يلقن المواد ولا تعطى له الملخصات لكى يحفظها عن ظهر قلب . ومن هنا نشأت طريقة "المشروع" التى عنيت بها المـدارس الأمريكية والتى ابتكرها الأستاذ كلبا تريك . فان التلاميذ يدرسون مشكلة من المشكلات المحيطة بهم مثل تفشى الأوبئة أو انتشار الجرائم أو غلاء الأثمان أو كثرة التعطل . والمعلم هنا يرشد الصبيان ولا يسوقهم ، وهو يزور معهم الأماكن التى توضح لهم معنى أو مغزى فى الموضوع الذى يدرسونه كما أنه يتصل بالحكومة أو بالناشرين لكى يطلب الكتب التى تبحث هذا الموضوع .

وهو فى غضون الدرس يشرح كل ما يعترضه أو يتصل بموضوعه من صعوبات . فيخرج التلميذ بعد أن يكون قد قضى شهرا فى هذا الدرس ، وهو يدرس نظام الحكومة أو المجتمع ويكون فى الوقت نفسه قد عرف نظريات ووقف على معارف كثيرة عملية أو رياضية أو اجتماعية . ثم هو بعد ذلك يكون قد تعلم طريقة البحث لأى مسألة أو مشكلة تواجهه فى المستقبل. وهنا ميزته على التلميذ الذى تعلم فى المدارس القديمة. لأن هذا قد درس مواد معينة فإذا عرضت له مواد أخرى لم يدرسها وقف حيالها حائرا . كما إذا عرضت له مشكلة لم يعرف كيف يواجهها ويحلها .

والمدارس الجديدة تعنى أكبر العناية بتربية الشخصية . فالتلميذ ليس عندها أسفنجة تتشرب المعارف، ولكنه كائن حى ينمو ويبحث بنفسه عن المعارف ويقصد إليها ويستخدمها لزيادة الرفاهية والسعادة ، وهو يتخرج منها لكى يعيش سائر عمره طالبا يبحث ويتعلم وينمو فى المجتمع الذى يعيش فيه ، وذلك لأنه حين ترك المدرسة لم يمتحن الامتحان النهائى الذى يثبت معرفته بطائفة معينة من المواد التى لا يعرف غيرها، وإنما هو تعلم الطريقة التى يمكنه أن يزيد بها معارفه السابقة أو يبتكر بها معارف جديدة .

وللتمثيل والخطابة وترتيب الاجتماع شأن كبير فى المدارس الجديدة، لأنها جميعها ترقى الشخصية وتنميها ، كما أنها ترقى الروح الاجتماعى الذى يحتاج إليه عصرنا . ويقول دعاة المبادئ الجديدة إن الحرب إنما هى القمة لروح المباراة التى نوجدها بين التلاميذ فى المدارس الحاضرة ثم نقويها بالمزاحمة للكسب فى المجتمع . ولكن إذا نشأ التلميذ على التعاون فى الفصل وعلى الحرية فى اختيار المواد التى يريد أن يتعلمها فإنه ينشأ على مثل هذه الخصال فى المجتمع يطلب التعاون بين الأفراد ثم بين الأمم . كما أنه لتعلقه بالحرية يرفض الطغيان ويحطم كل محاولة للاستبداد ، وليس عجيبا بعد هذا أن نرى أن جميع الأمم الديكتاتورية مثل روسيا وألمانيا وإيطاليا قد ألغت هذه المدارس الجديدة .

من حكم العرب

إن عجبت لشىء فعجبى لرجال تنمو أجسامهم وتصغر عقولهم .

الأحنف بن قيس